العنُصريّة والإرثُ "الحضاريُّ" للغَرب

رئيس التحرير
د. محمد محمود مرتضى

مُنذُ وُجد الإنسانُ والظُّلمُ يُطاردُه في مناكبِ الأرضِ وشِعابِها، ولعلَّ أصعبَ أنواعِ الظُّلم أنْ يَجدَ المرءُ إخوةً له في الإنسانيّة يَجتهدونَ في إذلاله واستعباده، غيرَ عابئينَ بأنَّه مثلهُم يحملُ روحًا توّاقةً إلى العَدلِ، وقلبًا خفّاقًا بالمشاعر، وتَطلُّعًا عاشقًا للجمالِ الكامنِ في الموجودات، والأنوارِ المنُبعثةِ من وراءِ الحُجُبِ، التي تُخبرُه أنَّ اللهَ يَسمَعُ ويَرى.

لقد عانى الإنسانُ القديمُ والحديث من آفةِ العُنصريّة، التي حملَ لَهيبَها أباطرةٌ وملوكٌ وأُمم، وتزعَّمها في عصرنا الحاضرِ الغَربُ، فراحَ يُخفي خلَفَها تَناقُضاتِهِ وسُقوطَه الخُلُقيّ، ويتَّخِذُها سِلاحًا في وجه الضُّعفاء من الشُّعوبِ والأفراد.

ومع أنَّ الغربَ يَسعى إلى تَقديم نفسِه على أنَّه مَهدُ الدِّيمقراطيّة، والمُدافعُ الأوَّلُ عن الحرِّياتِ وحقوقِ الإنسان، لكنّ العُنصرِّيةَ لا تزالُ واقعًا يوميًّا يَعيشُه الملايينُ من الأقليّاتِ العرقيّةِ والمُهاجرينَ داخلَ المُجتمعاتِ الغَربيّة. فمنذُ إلغاءِ العبوديّةِ رسميًّا، مُرورًا بحركات الحقوق المَدنيّة، وُصولاً إلى ما بعدَ الحَداثة، لم تَستطعِ المُجتمعاتُ الغربيّةُ التخلُّصَ من إرثها العُنصريِّ، وإنَّما أعادَت إنتاجَه بطُرق أكثرَ تَعقيدًا وأقلَّ وُضوحًا، ليَظهَرَ السُّؤالُ الأكثرُ إلحاحًا اليومَ وهو: لماذا لا تزالُ العُنصريّةُ مُتجذِّرةً في المُجتمعات الغَربيّة رغمَ كلِّ الشِّعاراتِ التي ترفعُها حولَ المُساواة والتعدُّديّة؟

يَدَّعي الخطابُ الغربيُّ أنَّ العُنصريّةَ مُجرَّدُ سُلوكيّات فَرديّة نابعة من التعصُّب الشَّخصيِّ، وأنَّه يمُكنُ القضاءُ عليها من خلال «التّسامُح» و«التّعليم» و«القوانين المُناهضة للتَّمييز». لكنَّ الواقعَ يكشفُ أنَّ العُنصريّةَ هي جزءٌ من نظامٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ وسياسيٍّ أوسعَ، يَعمل على إدامة الفَوارقِ العِرقيّةِ عبرَ قوانينَ بطريقة ملتوية، ومُؤسَّساتٍ تَمييزيّةٍ، وإعلامٍ مُوجَّهٍ يُعيد إنتاجَ الصُّورِ النَّمطيّة.

وهذا ما يُؤكِّدُه المُفكِّرُ الأمريكيُّ (Cornel West-كورنيل ويست) بقوله: "العُنصريّةُ هي بنيةٌ اقتصاديّةٌ وسياسيّةٌ تُستخدَم للحفاظ على امتيازات فئة على حساب أُخرى".[1]

وبالفعل، حينَ ننظرُ إلى مُؤشِّرات الفَقر، والتَّعليم، وسوق العَمل، والنِّظام القَضائيِّ، والعُنف الشُّرطيِّ، والتَّمثيل السِّياسيِّ، نجدُ أنَّ الأقليّات العرقيّةَ—وخاصّةً السُّود، والمُسلمينَ، والمُهاجرينَ من أصول غير أوروبيّة—لا تزالُ تُعاني من تَمييزٍ مَنهجيٍّ يَجعلُها في أسفل الهَرَم الاجتماعيِّ، رغم الادِّعاءات بالمُساواة القانونيّة.

مِنْ شعارات حقوق الإنسان إلى واقع التَّمييز

من المُفارَقات الصّارخة أنَّ الغَربَ، الذي يَنتقد العُنصريّةَ في العالَم الثالث، ويتدخَّلُ في سياسات الدُّول الأخرى، تحتَ ذريعة الدِّفاع عن الحرِّيات، لا يَزال يُعاني داخليًّا من صور مُختلفة من التَّمييز العرقيِّ. فالولاياتُ المتَّحدة، التي تُقدِّمُ نفسَها باعتبارها «نموذجًا عالميًّا لحقوق الإنسان»، لا تزالُ تَشهد مُعدَّلات عاليةً من العُنف الشُّرطيِّ ضدَّ السُّود، وعدم المُساواة في العَدالة الجنائيّة، والفَجوة الاقتصاديّة بينَ الأعراق. أمّا في أوروبا، فالسِّياساتُ المُعاديةُ للمُهاجرينَ والإسلاموفوبيا المُتزايدةُ، والتَّمييزُ في سوق العَمل والإسكان، وتَنامي الأحزاب اليَمينيّة المُتطرِّفة، تَعكسُ نفاقًا سياسيًّا واضحًا بين الخطاب والمُمارسة.

"فالغَربُ يُواصِلُ تَقديمَ نفسه بوصفه حاملاً للحَداثة والتقدُّم، لكنَّه في الوقت ذاته يُعيدُ إنتاجَ عُنصريّته بطُرق أكثرَ تَعقيدًا، سواء من خلال سياسات الدَّولة أو عبرَ الخطاب الإعلاميِّ والثَّقافي".[2]

هذا ويُحاوِلُ بعضُ المُفكِّرينَ الغَربيِّينَ تَبريرَ العُنصريّة باعتبارها حالةً فرديّةً، وليسَت جُزءًا من النِّظام السِّياسيِّ والاقتصاديّ. لكنَّ الوقائعَ تُشير إلى أنَّ التَّمييزَ العُنصريَّ في الغرب عبارةٌ عن منظومة مُتكاملة تُعيد إنتاجَ الامتيازات لصالح الفئات البَيضاء، وتُحافظُ على إقصاء الأقليّات العرقيّة.

لكنْ، لماذا لا تَزال الأحياءُ ذاتُ الأغلبيّة السَّوداء واللاتينيّة في أمريكا تُعاني من الفَقر، وتَدنيِّ مُستوى التَّعليم، وارتفاع مُعدَّلات البَطالة؟

ولماذا يتعرَّضُ السُّودُ والمُهاجرونَ لتَوقيفات عَشوائيّة من قِبَلِ الشُّرطة أكثرَ من غيرِهم؟

1 - West, Cornel. Race Matters. Vintage Books, 1994, p. 3.

2 - Goldberg, David Theo. The Racial State. Blackwell Publishers, 2002, p. 6.

ولماذا نجدُ أنَّ التَّمثيلَ السِّـياسيَّ والاقتصاديَّ للأقليّاتِ العِرقيّـةِ ضَئيلٌ جدًّا في الحكوماتِ والشَّركاتِ الكُبرى؟

يُشير المُؤرِّخُ (إدواردو بونيلا سيلفا - Eduardo Bonilla-Silva) إلى أنَّ "العُنصريّةَ المُعاصرةَ أصبحَـت تَعمل عبرَ آليّـات خَفيّة، تَجعل التَّمييـزَ يَبدو وكأنَّه نتيجةٌ طبيعيّـةٌ لاختلافِ القُدراتِ الفَرديّة، على حين هو في الحَقيقةِ نتيجةُ بنيةٍ مُنهَجة".[1]

نحو قراءة أكثرَ عُمقًا للعُنصريّة الغَربيّة

إنَّ العُنصريَّةَ ليسَت ظاهرةً جديدةً في الغَرب، بل هي امتدادٌ تاريخيٌّ لمَنظومةٍ استعماريّة قائمةٍ على اسـتغلالِ الأعراقِ الأُخـرى. فالغَربُ، الذي بَنى ثَروتَه على العُبوديّة، والاسـتعمار، ونَهبِ المَـوارد، والتفـوُّقِ الأَبيضِ، لم يتخلَ عن إرثـه العُنصريِّ، وإنَّما أعادَ إنتاجَه بطُـرقٍ أكثرَ حَداثةً ومُؤسَّسية.

ذلك أنَّ "الاستعمارَ كان إعادةَ إنتاجٍ للعُنصريّة بوصفه أداةً للسَّيطرة على الشُّعوب، وحتّى بعدَ نهايةِ الاستعمار، استمرَّت البنيةُ العُنصريّةُ في المُجتمعاتِ الغَربيّة بطُرقٍ جَديدة".[2]

إنَّ فهـمَ العُنصريّةِ في الغَربِ اليومَ لا يُمكنُ أن يتمَّ بمَعزلٍ عن جذورها التّاريخيّة. فالعُنصريّةُ تَمتدُّ إلى قرونٍ من الاسـتعمارِ والعبوديّة والتفوُّقِ العرقيِّ الذي شكَّلَ البنيةَ الثَّقافيّةَ والاقتصاديّةَ والسِّياسـيّةَ للمُجتمعاتِ الغَربيّة. فمُنذُ بدايةِ التوسُّـعِ الأوروبيِّ في القرن الخامسَ عشرَ، وحتّى نهايةِ القرنِ العشرينَ، اعتمدَ الغربُ على إقصاءِ الآخَرِ واسـتغلالِه بوَصفِه inferior (أدنى مَنزلةً) وباعتباره جزءًا من مَشروعِه الإمبرياليِّ.

بدأتِ العُبوديّةُ العابرةُ للأطلسيِّ بوصفه أحدَ المَحاورِ المَركزيّة في بناء الاقتصادِ الغربيِّ. فمُنذُ القرنِ السّـادسَ عشرَ، تمَّ اختطافُ ملايينِ الأفارقةِ وبَيعُهم عبيدًا في أوروبّا والأمريكيَّتَين؛ حيثُ تمَّ اعتبارُهم أدواتِ إنتاجٍ لا أكثرَ. هذه العُبوديّةُ كانَت جزءًا من نظامٍ أيديولوجيٍّ يُشرِّعُ اسـتعبادَ الأعراقِ غيرِ الأوروبيّةِ باسم «تفوُّقِ العِرقِ الأبيض».

---

1 - Bonilla-Silva, Eduardo. Racism Without Racists: Color-Blind Racism and the Persistence of Racial Inequality in America. Rowman & Littlefield, 2017, p. 27.

2 - Fanon, Frantz. Black Skin, White Masks. Grove Press, 2008, p.69.

ولم يكنْ هذا التَّمييزُ مُقتصرًا على العُبوديّة، بل امتدَّ إلى الاستعمار الأوروبيِّ الذي احتلَّ معظمَ دول إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، مُستغلًا شعوبَها وأراضيها باعتبارها مصادرَ للمواد الخام والقُوى العاملة. وقد اعتمدَ الاستعمارُ على تَبريراتٍ عُنصريّة تقول إنَّ الشُّعوبَ غيرَ الأوروبية "مُتخلِّفةٌ" وتَحتاج إلى "تمَدين"، وهو ما سُمِّي بـ"عبءِ الرَّجلِ الأبيضِ" الذي استخدمتْه الإمبراطورياتُ الأوروبيّةُ لتَبرير نَهبها للثَّروات وإخضاعِ الشُّعوب.

لم يكنِ التَّمييزُ العنصريُّ في الغربِ مُجرَّدَ مُمارسة سياسيّة واقتصاديّة، بل تمَّتْ شرعنتُه أيضًا من خلال العُلوم والفلسفة. ففي القرن التاسعَ عشرَ، ظهرَت نظريّاتٌ عنصريّةٌ علميّةٌ تدَّعي أنَّ بعضَ الأعراقِ مُتفوِّقةٌ بطبيعتِها، في مقابلِ أعراقٍ أخرى "أدنى مَنزلةً" على المُستوى البيولوجيّ.

في عام ١٨٥٣، نشرَ (جوزيف غوبينو - Joseph de Gobineau) كتابَه "مقال عن عَدمِ المُساواةِ بينَ الأجناسِ البَشريّة"، زعمَ فيه أنَّ العرقَ الأبيضَ هو الأعلى ذكاءً والأكثرَ قُدرةً على القيادة، ووصفَ الأعراقَ الأخرى بأنَّها أقلُّ تطوُّرًا.

وفي عام ١٨٧١، نشرَ (تشارلز داروين - Charles Darwin) كتابَ "نشوء الإنسان والانتقاء الجنسيّ"، فاستغلَّ بعضُ علماءِ الأحياءِ أفكارَه لتَبريرِ فكرةِ "البقاء للأصلح" بوصفِها مُبرِّرًا للاستعمار.

وظهرتِ الحركةُ العلميّةُ لتَحسينِ النَّسلِ (Eugenics) التي سعَت إلى تقليلِ نسلِ الأعراقِ غيرِ البيض، باعتبارها "غيرَ مُلائمة"، وهي الأفكارُ التي تبنّاها النّازيُّونَ لاحقًا.

فالعِلمُ "... كان أداةً لإضفاء الشَّرعيّة على التفوُّقِ العِرقيِّ الأوروبيِّ، وهذا ما ساعدَ على ترسيخ سياساتِ الإقصاءِ والاستعباد".[1]

مع انتهاءِ الاستعمارِ العسكريّ، لم تتوقَّفْ العُنصريّةُ، وإنَّما أُعيدَ إنتاجُها في شكل قوانينَ تُكرِّسُ التَّمييزَ العِرقيَّ، من أبرزها:

- نظامُ الفصلِ العُنصريِّ (الأبارتايد -Apartheid) في جنوب إفريقيا (١٩٤٨-١٩٩٤)، الذي بموجبه منعُ السُّكانِ السُّودِ من حقوقِهم الأساس، وفرضُ قيودٍ على تحرُّكاتِهم وعملِهم.
- قوانينُ (جيم كرو - Jim Crow) في الولايات المتَّحدة (١٨٧٧-١٩٦٥)، التي فرضَت فصلًا عُنصريًّا في المَدارس، والمُواصلات، والمَرافقِ العامّة، وحصرَت السُّود في وظائفَ مُنخفضةِ الأجرِ.

1 - Gould, Stephen Jay. The Mismeasure of Man. W. W. Norton & Company, 1981, p. 54.

- السِّياساتُ التَّمييزيّةُ في أوروبا تجاهَ المُهاجرينَ، مثل قوانينِ الهِجرةِ في فرنسا وبريطانيا، التي حَدَّت من فُرصِ اللاّجئينَ والأقليّاتِ في الحُصولِ على حقوقٍ مُتساوية.
- العُنصريّةُ في الكيان الصهيونيّ، ومُحاولاتُ تَهجيرِ الفلسطينيّينَ من أرضهم، وحروبُ الإبادة التي تُشَنُّ عليهم.

في ستينيّاتِ القرنِ العِشرينَ، شهدَ العالَمُ صعودَ حركاتِ الحُقوقِ المَدنيّةِ، التي قادَتها شخصيّاتٌ مثل (مارتن لوثر كينغ - Martin Luther King)، و(مالكوم إكس - Malcolm X)، و(نيلسون مانديلا - Nelson Mandela)، وطالبَتْ بإنهاءِ التَّمييزِ العُنصريِّ وإعطاءِ الأقليّاتِ حقوقَها السِّياسيّةَ والاجتماعيّة. وبالفعل، أُلغيت كثيرٌ من القوانينِ العُنصريّة، لكنَّ ذلكَ لم يَعنِ انتهاءَ العُنصريّة، بل تحوَّلَت من كونِها ظاهرةً قانونيّةً إلى كونِها بنيةً ثقافيّةً واقتصاديّةً خَفيّةً.

فلا تزالُ الأقليّاتُ العرقيّةُ في الغربِ تُعاني من فَجوةٍ اقتصاديّةٍ كبيرةٍ مُقارنةً بالبيضِ، وتُشيرُ الإحصاءاتُ إلى أنَّ السُّودَ واللاتينيّينَ يَحصلونَ على رواتبَ أقلَّ بنسبة ٢٠-٣٠٪ مُقارنةً بنُظرائِهم البيضِ الذينَ يعملونَ في الوظائف نفسها.[1]

ولا تزالُ الشُّرطةُ الغَربيّةُ تُمارسُ العُنفَ المُفرطَ ضدَّ السُّودِ والمُهاجرينَ، كما ظهرَ بوضوحٍ في قضيّةِ (جورج فلويد - George Floyd) (٢٠٢٠)، التي أثارتِ احتجاجات عالميّةً ضدَّ وَحشيّةِ الشُّرطة.

ولا يَزال الإعلامُ الغربيُّ يُعزِّزُ الصُّورَ النَّمطيّةَ عن المسلمينَ والأفارقةِ والمُهاجرينَ، التي تُرسِّخُ التَّصوُّراتِ السَّلبيّةَ تجاهَ هذه الفِئاتِ.

العُنصريّة المؤسَّسيّة باعتبارها جزءًا من النِّظام

يعمَلُ الغربُ في الظّاهرِ على التَّرويجِ، في خطاباته، لفكرةِ أنَّ العُنصريّةَ باتَت جُزءًا من الماضي، لكنّ الواقعَ يُشيرُ إلى أنَّ التَّمييزَ العِرقيَّ لا يَزالُ مُتجذِّرًا في مُؤسَّساتِ الدَّولةِ والسِّياساتِ الاقتصاديّةِ والاجتماعيّة. لقد أصبحَت عُنصريّةً غيرَ مَرئيّة، لكنَّها مُؤثِّرةٌ بوجه عميق في حياة الأقليّاتِ. وهذا ما يُعرف اليومَ بالعُنصريّةِ المُؤسَّسيّة (Institutional Racism)، التي تعملُ للحفاظ على الامتيازات التّاريخيّة لفئة على حساب فئة أُخرى.

تُسهِم القوانينُ والسِّياساتُ الحكوميّةُ في الغربِ في إدامةِ التَّمييزِ العِرقيِّ من خلال إجراءاتٍ

1 - U.S. Bureau of Labor Statistics, 2021.

تَبـدو على السَّـطحِ مُحايـدةً، لكنَّها في جوهرِهـا تُكرِّسُ الفَجـوةَ بينَ الأعراقِ. ومـن أبرزِ هذه السِّياساتِ:

- التَّمييزُ في الإسكان: كثيرٌ من المُدن الغَربيّة تَعتمدُ نظامًا غيرَ مُعلَن لفَصلِ الأحياءِ على أسُسٍ عِرقيّةٍ؛ بحيثُ تَبقى مُجتمعاتُ السُّودِ والمُهاجرينَ مَحصورةً في أحياءٍ فَقيرةٍ ذاتِ خَدماتٍ سيِّئة، وهذا الأمرُ يُعزِّزُ العُزلةَ الاجتماعيّةَ والاقتصاديّة.
- الفَجوةُ في التَّعليم: تُشير الدِّراساتُ إلى أنَّ المدارسَ في الأحياء الفقيرة، التي يَسكنُها غالبًا السُّـودُ والمُهاجرونَ، تَحصـلُ على تمويل أقلَّ وفُرصٍ تَعليميّـةٍ أضعفَ مُقارَنةً بالمدارسِ في المَناطقِ ذاتِ الأغلبيّةِ البيضاء.[١]
- التَّفاوُتُ في فُرصِ العَمل: تُظهرُ الإحصائيّاتُ أنَّ الأقليّاتِ تُواجهُ مُعدَّلاتِ بطالةٍ أعلى، وتَتقاضى أجورًا أقلَّ، وتَحظى بفُرصٍ أضعفَ للتَّرقيةِ مُقارنةً بالبيضِ، حتى عندَ تَساوي المُؤهِّلاتِ والخبرات.[٢]
- تلعـبُ الأنظمةُ القَضائيّةُ دورًا محوريًّا في تكريس العُنصريّةِ المُؤسَّسـيّةِ؛ حيثُ تُطبّق القوانينِ بطريقةٍ غيرِ متكافئة على أساسِ العِرق. ومن أبرزِ الأمثلةِ على ذلك:
- التَّمييزُ في الأحكامِ القَضائيّة: تُشيرُ الدِّراساتُ إلى أنَّ السُّودَ واللاتينيِّينَ، في الولايات المتَّحدة، يَحصلونَ على أحكامٍ أشدَّ قسوةً من نُظرائِهم البيضِ عندَ ارتكابِهم الجرائم نفسها.[٣]
- الاسـتهدافُ الأمنيُّ للأقليّـات: تُواجهُ مُجتمعاتُ السُّـودِ والمُسـلمينَ والمُهاجرينَ مُعدَّلاتٍ أعلى من التَّوقيفِ والتَّفتيشِ العَشـوائيِّ مُقارنةً بالمُواطنينَ البيضِ، حتّى في الدُّولِ الأوروبيّةِ التي تدَّعي مُحاربةَ التَّمييزِ العُنصريّ.[٤]
- السَّجْنُ الجماعيُّ للأقليّاتِ: يُواجِهُ السُّودُ في الولاياتِ المتَّحدةِ مُعدَّلاتِ سَجْنٍ تَفوقُ

1 - Alexander, Michelle. The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colorblindness. The New Press, 2010, p.78.

2 - U.S. Equal Employment Opportunity Commission, 2021.

3 - Tonry, Michael. Malign Neglect: Race, Crime, and Punishment in America. Oxford University Press, 1995, p.113.

4 - European Network Against Racism, 2020.

البيضَ بخمسة أضعاف، ممّا جعلَ بعضَ المُفكّرينَ يَصفونَ النِّظامَ القَضائيَّ الأمريكيَّ بأنَّه استمرارٌ لقوانينِ الفَصلِ العُنصريِّ بطُرقٍ حَديثة.[1]

الإعلامُ وصناعة الصُّورة النَّمطيّة: كيف يتمُّ تَرسيخُ العُنصريّة في الثَّقافة الغَربيّة؟

يلعبُ الإعلامُ دورًا رئيسًا في إعادة إنتاجِ الصُّورِ النَّمطيّة عن الأقليّات العرقيّة، التي تُعزِّزُ المُمارَسات العُنصريّةَ المؤسَّسيّة. فمن خلال الأفلام، والبرامج التلفزيونيّة، والتَّغطيات الإخباريّة، يتمُّ تَصويرُ المُهاجرينَ والسُّودِ والمُسلمينَ على أنَّهم تَهديدٌ دائمٌ للمُجتمعات الغربيّة، وهذا السُّلوكُ يَخلُقُ بيئةً تُسهِّلُ استمرارَ التَّمييز. "فالإعلامُ الغربيُّ لا يَنقلُ الواقعَ كما هو، بل يُعيدُ إنتاجَ رُؤيةٍ تَخدمُ الطَّبقاتِ الحاكمةَ؛ حيثُ يُظهِرُ الأقليّاتِ باعتبارهم عالةً على المُجتمعِ أو خطرًا يَجبُ مُكافحتُه".[2]

الإسلاموفوبيا: وجهٌ جديدٌ للعُنصريّة في الغَرب

معَ تصاعُدِ الهجرةِ إلى أوروبا وأمريكا، وخصوصًا من الدُّول الإسلاميّة، أصبحَ الإسلامُ والمُسلمونَ محورًا جَديدًا للعُنصريّة المؤسَّسيّة والشَّعبيّة في الغَرب. لم تَعدِ العُنصريّةُ مُوجَّهةً فقط ضدَّ السُّودِ واللاّتينيِّينَ، بل أصبحَ الإسلاموفوبيا (الخَوفُ المَرضيُّ من الإسلام) أحدَ أبرزِ أشكالِ التَّمييزِ العِرقيِّ والثَّقافيّ. وقد تصاعدَت هذه الظّاهرةُ بعدَ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ حيثُ تحوَّلَ الإسلامُ في الخطاب السِّياسيِّ والإعلاميِّ الغربيِّ إلى «عَدوٍّ داخليٍّ» يُهدِّدُ القِيَمَ الدِّيمقراطيّةَ والحَداثةَ الغَربيّة.

لكنَّ السُّؤالَ هو: هل الإسلاموفوبيا مُجرَّدُ كراهيةٍ عَفويّة ضدَّ المُسلمينَ، أم أنَّه جُزءٌ من مشروع سياسيٍّ واقتصاديٍّ أوسعَ؟ وكيفَ وُظّفت لخدمة أهداف مُعيَّنة في الغَرب؟

لم تكنِ النَّظرةُ الغربيّةُ السَّلبيّةُ تجاهَ الإسلامِ وليدةَ اللَّحظة، بل هي امتدادٌ لقرونٍ من الاستشراق الاستعماريِّ، الذي سَعى إلى تقديم الإسلامِ على أنَّه دينٌ مُتخلِّفٌ، يَتعارضُ مع "الحضارة الغربيّة

1 - Alexander, The New Jim Crow: Mass Incarceration in the Age of Colour-blindness, p. 123.

2 - Chomsky, Noam. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. Pantheon Books, 1988, p. 89.

المُتقدِّمة". فمنذُ الحَملات الصَّليبيّة، وحتّى الاستعمارِ الأوروبيِّ للعالَمِ الإسلاميِّ، كان الإسلامُ يُصوَّرُ دائمًا على أنَّه دينُ العُنف والتعصُّبِ والانغلاق.

واليوم، لا تزالُ هذه التصوُّراتُ تعملُ على تبرير السِّياساتِ الغربيّة تجاهَ المُسلمينَ، سواء في الدّاخلِ (التَّمييز ضدَّ المُسلمينَ المُهاجرينَ) أم في الخارجِ (الحروب والتدخُّلات العَسكريّة في الدُّول الإسلاميّة).

يتجلَّى الإسلاموفوبيا في الغربِ من خلال القوانينِ والسِّياساتِ الحكوميّةِ التي تضعُ المُسلمينَ في خانة "المُشتبَه بهم" بشكلٍ دائم. ومن أبرزِ هذه السِّياسات:

- قوانينُ حظرِ الحِجابِ والنِّقاب في فرنسا وبلجيكا وألمانيا، التي تَفرِضُ قُيودًا على حريّةِ اللِّباسِ الإسلاميِّ تحتَ ذريعة «حماية العلمانيّة».
- القوانينُ المُشدَّدةُ ضدَّ المُهاجرينَ المُسلمينَ، مثل سياساتِ الهِجرةِ في الولايات المتَّحدة التي فرضَها الرئيسُ دونالد ترامب، والتي استهدفَت دُولاً إسلاميّةً بشكلٍ صَريح.
- المُراقبةُ الجماعيّةُ للمُسلمينَ؛ حيثُ تقومُ الحكوماتُ الغربيّةُ بالتجسُّسِ على المَساجدِ والمُنظَّماتِ الإسلاميّةِ تحتَ ذريعةِ "مكافحة الإرهاب"، ممّا يُرسِّخُ فكرةَ أنَّ المُسلمَ مُتَّهم حتى يَثبُتَ العَكسُ.[1]

ويَلعبُ الإعلامُ الغربيُّ دورًا محوريًّا في تعزيز الإسلاموفوبيا من خلال تصويرِ المسلمينَ بأنهم إرهابيون مُحتمَلونَ، أو مُتخلِّفونَ، أو غيرُ قادرين على الاندماج في المُجتمعاتِ الحَديثة. وتَشمل هذه الصُّورةُ النَّمطيّةُ العناصرَ الآتية:

- ربطُ الإسلامِ بالإرهاب: حيثُ يُركِّز على الجرائمِ التي يَرتكِبُها مُسلمونَ، على حين تُتجاهل جرائمِ المُتطرِّفينَ البيضِ.
- إظهارُ الحِجابِ بصفته رمزًا للقَهر: حيثُ تُقدَّمُ النِّساءُ المُسلماتُ على أنَّهنَّ "مُضطهداتٌ"، وبحاجةٍ إلى إنقاذ من ظُلم "المُجتمعاتِ المُتخلِّفة».
- التَّرويجُ لنظريّةِ "أسلمة أوروبا": حيثُ يُتلاعب بالإحصائيّاتِ لإظهارِ أنَّ المُسلمينَ يُكوّنون "تهديدًا ديموغرافيًّا" للحَضارة الغربيّة.

1 - Kundnani, Arun. The Muslims Are Coming! Islamophobia, Extremism, and the Domestic War on Terror. Verso Books, 2014, p.47.

أصبحَ الإسـلاموفوبيا أداةً سياسـيّةً بيدِ الأحزابِ اليَمينيّةِ المُتطرِّفـةِ في أوروبا وأمريكا، التي تستغلُّ الخوفَ من الإسلام لحشـدِ التأييدِ الشَّعبيّ، وتقومُ بتقديمِ المُسلمينَ كخطرٍ على الهويّة الوطنيّةِ، ممّا يُبرِّرُ سياساتِ الهجرةِ الصّارمةِ، واستخدامَ الخطابِ الدِّينيِّ المَسيحيِّ ضدَّ الإسلامِ، كما في خطـاب «الحربِ على الإرهـاب». مضافًا الى تمويلِ الحَملاتِ المُعاديةِ للإسـلام من قِبَلِ مجموعاتِ الضَّغطِ الصهيونيّةِ، التي تَرى في نشرِ العَداءِ للإسـلامِ وسـيلةً لدَعمِ السِّياساتِ الإسرائيليّةِ ضدَّ الفلسطينيِّينَ.

إذًا، الإسلاموفوبيا هو مشروعٌ سياسيٌّ واقتصاديٌّ يَخدم أهدافًا مُحدَّدةً، من بينها تبريرُ التدخُّلاتِ العَسكريّةِ الغربيّةِ في الدُّولِ الإسلاميّة، من خلال تصويرِ المسلمينَ بأنّهم "تهديد عالميّ" يَحتاج إلى مواجهةٍ عسكريّةٍ، وتوجيهِ غضبِ الطَّبقاتِ الفقيرةِ في الغربِ نحوَ "العدوّ الإسلاميّ" بَدلاً من التَّركيزِ على السِّياساتِ الاقتصاديّةِ الظّالمة. مضافًا إلى دعمِ الاقتصادِ العَسكريِّ؛ حيثُ يُستخدم "الخطرِ الإسـلاميّ" بوصفه مبرِّرًا لزيادةِ ميزانياتِ الدِّفاعِ والاسـتخبارات، دون أن نَنسى تعزيزَ التَّحالُفاتِ السِّياسيةِ معَ الأنظمةِ الدِّيكتاتوريّةِ في الشَّرقِ الأوسَط، من خلال تقديمِها كـ«حُلفاء في الحربِ ضدَّ الإرهاب».

ومهما يكنْ من أمرٍ فإذا كان القرنُ العشرونَ قد شهدَ تراجُعًا في الخطابِ العُنصريِّ الصريح، فإنَّ القرن الحادي والعشرينَ شـهدَ تحـوُّلاً في أنماطِ العُنصريّة؛ بحيـثُ أصبحَت أكثرَ ذكاءً، وأكـثرَ قدرةً على التكيُّفِ مـعَ المناخِ السِّـياسيِّ والاجتماعيِّ الجَديد. لم تعـدِ العُنصريّةُ تُعبِّرُ عن نفسـها بصراحةٍ كما كان يَحدث في زمنِ قوانينِ الفَصلِ العُنصريِّ، لكنَّها عادَت من خلال خطاباتِ التفوُّقِ الأبيضِ، وصُعودِ الحَركاتِ الشَّعبويّةِ، والتَّلاعُبِ السِّياسيِّ بالمَخاوفِ الثَّقافيّةِ والاقتصاديّة.

لكنْ، ما الـذي أدَّى إلى إعادةِ إنتاجِ العُنصريّةِ في ثوبها الجَديد؟ وكيفَ أصبحَتِ الشَّـعبويّةُ اليَمينيّةُ الواجهةَ الجديدةَ للتَّمييزِ العِرقيِّ في الغرب؟

في المـاضي، كانتِ العُنصريّةُ في الغربِ تتجلَّى بوضوحٍ في سياسـاتٍ قانونيّةٍ واضحة، مثل العُبوديّـة، والفَصلِ العُنصريِّ، والاسـتعمار. لكنَّ هذه المُمارسـاتِ أصبَحـتْ مرفوضةً خُلُقيًّا بعد الحربِ العالميّةِ الثانية، ومعَ تصاعُدِ خطابِ حقوقِ الإنسـانِ والمُسـاواة، وهذا أجبرَ أنصارَ العُنصريّةِ على تبنِّي أساليبَ جديدةٍ، وأكثرَ مُرونةً للحفاظِ على الامتيازاتِ العِرقيّة.

هذا التحوُّلُ جعلَ من المُمكنِ استمرارَ العُنصريّةِ داخلَ الأنظمةِ الدِّيمقراطيّة؛ حيث لم يعدْ يُنظر إلى الأقليّاتِ العرقيّةِ باعتبارِها "أدنى"، بل باعتبارِها "تَهديدًا" للمُجتمعِ الغربيِّ، سواء من الناحيّةِ الاقتصاديّةِ أو الثَّقافيّةِ أو الأمنيّة.

ومع تصاعُدِ الأزَماتِ الاقتصاديّةِ والهجراتِ الجَماعيّةِ، وجدَتِ الأحزابُ اليَمينيّةُ المُتطرِّفةُ في أوروبا وأمريكا فرصةً لاستغلالِ العُنصريّةِ سياسيًّا، من خلال تبنِّي خطاباتٍ قوميّةٍ مُتشدِّدةٍ تدَّعي أنَّها تُدافعُ عن "الهويّةِ الوطنيّة" ضدَّ "الغَزوِ الثَّقافيّ" الذي تمُثِّلُه الأقليّاتُ والمُهاجرونَ.

ويُعتبرُ صُعودُ دونالد ترامب إلى الرِّئاسةِ الأمريكيّةِ عام ٢٠١٦ ثم عودتُه عام ٢٠٢٤ نقطةَ تَحوُّلٍ في الخطابِ العُنصريِّ الجديدِ؛ حيثُ استندَت حملتُه الانتخابيّةُ على تحريضٍ صريحٍ ضدَّ المُهاجرينَ والمُسلمينَ والسُّودِ، مُستخدمًا شعاراتٍ مثل: "أمريكا أولاً"، التي أعادَت إنتاجَ فكرةِ أنَّ "الأمريكيَّ الأبيضَ" هو المُواطنُ الحَقيقيُّ، على حين أنَّ الآخَرينَ مُجرَّدُ "ضيوفٍ غيرِ مُرحَّبٍ بهم».

أوروبا واليَمين المُتطرِّف: عندما أصبحَ الخطابُ العُنصريُّ سياسةً حكوميّة

لم يكنْ ترامب وحدَه مَن أعادَ إحياءَ الخطابِ العُنصريِّ، بل شهدَت أوروبا أيضًا صُعودًا غيرَ مَسبوقٍ لليَمينِ المُتطرِّف؛ حيثُ دخلَت أحزابٌ مثل:

- حزب التجمُّعِ الوَطني في فرنسا (مارين لوبان).
- حزب البَديل لألمانيا (AfD).
- حزب الحرِّيّة في النّمسا.

وجميعُ هذه الأحزابِ استخدمَت خطابَ الخَوفِ من المُهاجرينَ والمُسلمينَ لحَشدِ الأصواتِ، وقدَّمَت نفسَها على أنَّها تُدافعُ عن «القِيَمِ الأوروبيّةِ في مُواجَهةِ الغَزوِ الإسلاميّ».

هل نحن أمام "فصلٍ عُنصريٍّ ناعم"؟

إذا كان الفصلُ العُنصريُّ في الماضي يَعتمد على القوانينِ الصَّريحةِ للتَّمييزِ، فإنَّ العُنصريّةَ الجديدةَ تَعتمد على سياساتٍ ناعمةٍ تُعيدُ إنتاجَ التَّمييزِ بطُرقٍ خَفيّةٍ، من خلال الإعلامِ، والسِّياسة، والاقتصاد.

لكنَّ السُّؤالَ المَطروحَ هو: هل تَستطيعُ المُجتمعاتُ الغربيّةُ أن تتحرَّرَ من خطاب التفوُّقِ

الأبيضِ والشَّعبويّة، أم أنَّ هذه النِّزعاتِ ستَظلُّ جُزءًا بنيويًّا من ثقافتها السِّياسيّة؟

الإجابةُ تكمُنُ في آلياتِ الخِطابِ التي تُوظَّف لتبرير العُنصريّة، وإعادةِ إنتاجها بطُرقٍ أكثرَ نُعومةً وأقلَّ وُضوحًا. فبَدلًا من استخدام المُصطلحاتِ العُنصريّة الصريحة، أصبحَ الخطابُ الغربيُّ يَعتمِدُ على مَفاهيمَ مثـلِ "الهويّة الوطنيّة"، و"حماية القِيَم الدِّيمقراطيّـة"، و"الأمن القَوميّ"، و"الاندماج الاجتماعيّ"، وهي مُصطلحاتٌ تَبدو بريئةً ظاهريًّا، لكنَّها تُخفي وراءَها مَشروعًا عُنصريًّا.

هل يمُكن الغربَ أن يتحرَّرَ من إرثِه العُنصريّ؟

إنَّ الحديثَ عن العُنصريّة في الغرب هو استكشافٌ لمُعضلة قائمة في الحاضر، تُهدِّدُ المُستقبلَ أيضًا. لقد حاولَت المُجتمعاتُ الغربيّةُ أن تُقدِّمَ نفسَها باعتبارها نموذجًا للمُساواة والعَدالة، لكنَّها في الواقع ما زالَت عالقةً في إرثها الاستعماريِّ، ونظرتها المُتفوِّقة إلى الأعراق والثَّقافات الأخرى. فحتّـى عندَما يَبدو أنَّ القوانـينَ تتغيَّرُ، أو أنَّ هناك مُحاولاتٍ لإصلاح الأوضـاعِ، فإنَّ العُنصريّةَ تَستمرُّ في إعادة إنتاجِ نفسِها بطُرقٍ أكثرَ تَعقيدًا وأقلَّ وُضوحًا.

لا يمُكـنُ فَهمُ العُنصريّـةِ في الغرب بمَعزلٍ عـن التّاريخِ الطَّويلِ للعُبوديّة والاسـتعمار، ولا يمُكـنُ إنكارُ دَورِ القُوى الاقتصاديّة والسِّياسـيّة في الإبقاء على الفَجـوات العرقيّة. فالأمرُ ليس مُجرَّدَ تَحيُّزاتٍ شَـخصيّة أو ثقافيّة، بل هو نظامٌ مُتكاملٌ يَخدم مصالحَ مُحدَّدةً، ويَضمنُ استمرارَ الامتيازاتِ لفئةٍ على حساب فئاتٍ أخرى.

لقد كشفَت المُمارساتُ كيف أنَّ العُنصريّةَ لم تقتصرْ على الماضي، وإنَّما عادَت اليومَ بصور جديدة، مَدعومةً بأيديولوجيات اليَمينِ الشَّـعبويِّ، ومن خلال سياسـاتٍ حُكوميّة ومُؤسَّساتٍ إعلاميّة واقتصاديّة تُكرِّسُ الفَجوةَ العِرقيّةَ. فسَواءٌ في التَّمييزِ داخلَ سوقِ العَمل، أو في الخطابِ الإعلامـيِّ الذي يُشـيطِنُ المُهاجريـنَ والمُسـلمينَ، أو في السِّياسـاتِ الأمنيّة التي تَسـتهدفُ الأقلِّيات، نجدُ أنَّ العُنصريّةَ ليسَـت مُجرَّدَ مُشكلةِ سُلوكيّاتٍ فرديةٍ، بل هي إطارٌ هَيكليٌّ يَخترِقُ كلَّ المُستوياتِ الاجتماعيّة والسِّياسيّة.

ففي المُجتمعاتِ الغَربيّة، هناكَ أصواتٌ تَرتفعُ اليومَ ضدَّ العُنصريّة، وهناكَ مُحاولاتٌ إصلاحيّةٌ لخَلقِ بيئةٍ أكثرَ عَدالةً. لكنَّ هذه المُحاولاتِ تظلُّ مَحدودةً، وغالبًا ما تُواجَهُ بردُودِ فِعلٍ عَنيفةٍ من التيّاراتِ اليَمينيّة، التي تَرى في أيِّ تَغييرٍ تَهديدًا لهويّتِها.

إنَّ المستقبَلَ سيَحملُ الإجابةَ عن كثيرٍ من الأسئلة، لكنَّ المُؤكَّدَ هو أنَّ العُنصريّةَ لن تَختفي من تلقاءِ نفسِها، إذا لم تكنْ هناك إصلاحاتٌ جَذريّةٌ في الفِكرِ والسِّياسةِ والاقتصادِ والإعلامِ؛ لأنَّ العُنصريّةَ ستَستمرُّ في التلوُّنِ بصُوَرٍ جَديدة، وستَبقى المُجتمعاتُ الغربيّةُ تَعيشُ في وَهمِ المُساواة، بينما تستمرُّ الفَجواتُ العِرقيّةُ في الاتِّساع.

ربمَّا يكونُ التحدِّي الأكبرُ اليومَ ليس فقط في محاربة العُنصريّة، بل في امتلاكِ الشَّجاعةِ للاعترافِ بحَجمِها الحَقيقيِّ، والاستعدادِ لدَفعِ الثَّمنِ من أجل القَضاء عليها. ومن دون ذلك، سيَظلُّ الغربُ يتحدَّثُ عن المُساواة، لكنَّه لن يكونَ قادرًا على تَحقيقِها حقًّا.

وقد احتوى هذا العددُ من "أُمم" جملةً من الأبحاث المُهمّة، التي سلَّطَت الضَّوءَ على عدّةِ مَواضيعَ هامّة ومُتكاملة، تَناولَت العُنصريّةَ بوصفها إحدى دعاماتِ المَشروعِ الحضاريِّ الغربيِّ. فعالَجَتِ الجُذورَ الثَّقافيّةَ والفلسفيّةَ للعُنصريّةِ في تاريخ الفكرِ الأوروبيِّ، وابتناءَ الحَضارةِ الأوروبيّةِ على مركزيّةِ الذّاتِ الأوروبيّةِ بوصفها محورًا حصريًّا للتقدُّمِ والتفوُّق. ثمّ عرضَت للعُنصريّةِ في التُّراثَينِ اليَهوديِّ، والصهيونيِّ، من خلال السَّبرِ في النُّصوصِ والرُّؤى المُؤسِّسةِ لهما، والكشفِ عن هذا الاتِّجاه المُفرِطِ في القسوةِ والبَطشِ والتحيُّزِ العرقيِّ والدِّينيِّ والفكريِّ الذي تكتنفُه الصّهيونيّةُ واليهوديّةُ في مقابلِ بقيّةِ البشرِ بمُختلفِ أديانهم ومُعتقداتهم وأعراقِهم.

وقد تُعرِّض إلى أحدِ المَجالات المُحدَثة في الميدانِ التِّكنولوجيِّ، وهو الذَّكاءُ الاصطناعيُّ، ودورُه في تَعزيزِ العُنصريّةِ وخطابِ الكراهيةِ، والتحيُّزِ ضدَّ فئاتٍ عرقيّةٍ ودينيّةٍ وثقافيّةٍ مُغايرةٍ للدَّوائرِ السِّياسيّةِ والثَّقافيّةِ المُؤثِّرةِ في إدارة كافّةِ مَجالاتِ التِّكنولوجيا المُعاصرة.

وقد تناولَتِ الأبحاثُ كذلك تجلِّياتِ العُنصريّةِ الغربيّةِ في مَجالِ الأدبِ والفنونِ والإعلامِ والسِّينما الغربيّة، التي كانَت ولا تزالُ أداةً مُتفوِّقةً في إبراز الأوروومركزيّةِ والاستعلاءِ الغربيِّ بوجهِه الأميركيِّ والصّهيونيِّ، وفي المُساهمةِ في التَّطبيعِ الثَّقافيِّ والسِّياسيِّ عبرَ هذه الأداة بالغةَ التأثير.

فيما أكَّدَتْ هذه الأبحاثُ على أسبقيّةِ الخطابِ القرآنيِّ في التأسيسِ لخطابٍ مَعرفيٍّ مُتكاملٍ، نابذٍ للعُنصريّةِ والعِرقيّة، ويُقدِّمُ عِوَضَ ذلكَ إطارًا إنسانيًّا جامعًا للاختلافاتِ العِرقيّةِ والدِّينيّةِ والثَّقافيّةِ والمَناطقيّةِ كافّةً، قائمًا على الأخُوّةِ الإنسانيّةِ والإيمانيّةِ، والعَدالةِ الاجتماعيّةِ المُطلَقةِ بينَ الناس.

وقد عرَّجَتِ المَقالاتُ أيضًا على دراسةٍ إحصائيّةٍ تناولَتِ التَّمييزَ العُنصريَّ ضدَّ الأقلّيّاتِ، لا

سيَّما المسلمينَ والأفارقة والآسيويِّينَ واللاتينيِّينَ، في الولايات المتَّحدة الأميركيّة وعدّة دُول أوروبيّة كفرنسا وألمانيا وبريطانيا؛ حيثُ تُظهر الإحصاءاتُ أنَّ العنصريّةَ تتَّخذُ مَسارًا تصاعُديًّا في الدُّول المَذكورة لأسباب سياسيّة ودينيّة، وأنَّها سياسةٌ مُمنهجةٌ ومُعتمَدةٌ في مفاصلِ الدَّولة.

إنَّنا إذ نُقدِّمُ هذا العددَ للقُرّاءِ الكِرامِ، فإنَّنا نأملُ أن يَنالَ الاستحسانَ والقَبولَ عندَهم، وقبلَ ذلك وبعدَه، أن يَنالَ القَبولَ عندَ اللهِ -سبحانه وتعالى-، باعتباره عملاً نَضعُهُ في سياق جهادِ التَّبيينِ.

والحمدُ لله أوَّلًا وآخِرًا.